آمنّا بأن البقرة تكلمت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه ، أما بعد فقد أطلعني بعض إخواني الفضلاء على مقال كتبه إبراهيم بن سليمان المطرودي في صحيفة الرياض يوم الأربعاء ٢٨ شوال ١٤٣٤ هـ - ٤ سبتمبر ٢٠١٣م - العدد (١٦٥٠٨) بعنوان (بقرة تتكلم أم يوحى إليها ؟) أنكر فيه الحديث الثابت في الصحيحين ، وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلى رسول الله صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس، فقال: (بينا رجل يسوق بقرة، إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نُخلق لهذا. إنما خُلقنا للحرث) فقال الناس: سبحان الله بقرة تَتكلم! فقال: (فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر...) .

وبعد قراءة ماذكره حوله رأيت من المناسب الرد عليه ، وبيان الحق ؛ خشية أن يلتبس الأمر على بعض من ليس له علم ، ولاسيما أنه منشور في صحيفة سيارة ، وقبل الجواب عما ذكره ، أقدم بالمقدمات الآتية :

أولا : الصحيحان (صحيح البخاري ومسلم) هما أصح الكتب بعد كتاب الله ، كما هو مقرر عند أهل العلم ؛ فالاستدراك عليهما ليس بالأمر اليسير لما فيه من خرق الإجماع .

ثانيا : الحديث المذكور من حيث سنده صحيح بل في أعلى درجات الصحة ، فقد أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، وأخرجاه من حديث الزهري وسعد بن إبراهيم عن أبي سلمة به ، وأخرجه مسلم من حديث سعيد بن المسيب عن أبي هريرة به ، وله طرق أخرى عند غيرهما .

والأصل فيما رواه الثقات الصحة حتى يثبت بالبرهان خطأ الراوي فيه ، أو وجود علة تمنع من تصحيحه . وهذا الحديث ليس فيه شيء من ذلك ، بل تخريج الشيخين له . وهما منْ هما في معرفة الحديث ورجاله وعلله . يثبت له الصحة وينفي عنه الضعف ، فضلا عن تصحيح غيرهما من الأئمة له ، وعدم استدراك من تناول الصحيحين بالدراسة والنقد والشرح على الشيخين تخريجهما لهذا الحديث ، وهذا إطباق منهم على صحته .

ثالثا : لئن كان الكاتب لم يفقه الحديث ، وأصابته شبهة حوله ، كان من المفترض عليه أن يتهم نفسه لا أن يتجرأ على الحديث بالتضعيف ، ويصم العلماء بعدم الفهم ، الذي أدركه بعقله ، وقد فات علماء الأمة الذين عاشوا على امتداد أكثر من ألف ومائتي عام !!

ثم إنه ليس من الحكمة ولا من سداد الرأي أن كل من اشتبه عليه نص من نصوص الشريعة أعلن هذا الاشتباه ونشره . كما فعل الكاتب . ولكن كان عليه أن يسأل أهل العلم عما أشكل عليه ؛ حتى تكشف عنه الشبهة ، ويُعرف الحق .

رابعا : الطريقة التي سلكها الكاتب في رد الحديث طريقة أهل الاعتزال الذين يردون النص بما يزعمون أنه يخالف العقل ، فيعتمدون على عقولهم الفاسدة ، ويصادرون عقول الأئمة والأمة!! وهي تخالف ما وجب من الإيمان والتسليم .

وبعد هذه المقدمة أعود إلى مناقشة الباحث فيما ذكره ، سائلا الله تعالى أن يبصرنا جميعا بالحق ، ويثبتنا عليه ، ويعيذنا من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن .

قول الكاتب (سياق الحديث يُظهر رسول الله عليه الصلاة والسلام قد فهم من التعجب في قول الصحابة (سبحان الله) أنهم لم يصدقوا قوله! وهذا ما دعاه كما تقول الرواية إلى أن يقول: "فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر..) **الجواب عنه** : ثبت في رواية مسلم أنهم قالوا ذلك (تعجبا وفزعا) والتعجب هنا لايدل على الإنكار ، ولكنه استعظام لهذا الشيء

لخروجه عن نظائره ، ولايفهم منه أنهم لم يصدقوا . كما زعم الكاتب . لأمرين : الأول : استصحاب المعهود من حال الصحابة من التسليم لما جاء به الوحي دون منازعة سواءا أكان ذلك خبرا أم حكما .

والثاني : أن قوله عليه الصلاة والسلام (**فإني أومن بهذا** ..) لايدل على مطلوب الكاتب ، ولايصح أن يجعل مقابلا لقول الصحابة رضوان الله عليهم ، كما توهمه الكاتب ؛ لرواية مسلم المصرحة بأنه وقع تعجبا وفزعا ، فهي بيان لسبب قولهم : (سبحان الله) ، ومقالة النبي صلى الله عليه وسلم ليست ردا عليهم ، ولكن حكاية للحال ، وإظهارا للامتثال الوارد في قوله تعالى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ } وتذكيرا به ، وذكره . عليه الصلاة والسلام . للشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لأنهما كانا غائبين ، كما جاء في رواية الصحيحين (فإِني أُومِنُ بهِ ، وأبو بكر وعمرُ ، وما ثَمَّ أبو بكر وعمر) ، وعليه فلا يدل ذكر أبي بكر وعمر على أن غيرهما لم يكن مؤمنا ، أوشاك .

قول الكاتب : (الثاني أن هذا الرجل، المغمور المجهول، مُنح معجزة وكرامة، لم يُمنحها سليمان عليه الصلاة والسلام ؛ إذ أعطى الله تعالى سليمان فهم أصوات الطير (وعُلّمنا منطق الطير)، ولم تكن الطير تتحدث إليه بلغته، على حين يمنح المسلم المصدق بهذا الحديث هذا الرجل المجهول أن البقرة حدّثته بلغته! فيكون ما وقع له أشد إعجازا وأعظم إبهارا مما وقع لسليمان عليه السلام ؛ وهو النبي المؤيد بالمعجزات) **الجواب عنه من وجهين:**

الوجه الأول : هذه المفاضلة من كيس الكاتب ، لم تستند على علم شرعي ، ولا منطق عقلي ، بل هناك فرق بين الأمرين ، فكون سليمان . عليه السلام . يفهم منطق الطير الذي ليس من لغة الآدميين أبلغ من سماع كلام البقرة بلغة ابن آدم ، ثم هذا الفهم على جهة الدوام بخلاف كلام البقرة فإنه محدود ؛ فصارت قصة سليمان أبلغ في الإعجاز .

الوجه الثاني : أن قصة سليمان عليه السلام حجة على الكاتب ؛ لأن فهم سليمان . عليه السلام . لمنطق الطير بقدرة الله ، وكلام البقرة بقدرة الله ، فالتفريق بينهما تفريق بين المتماثلين في قدرة الله ، فإذا أثبت الكاتب قصة سليمان . عليه السلام . لزمه إثبات قصة البقرة ؛ لكون القدرة الربانية صالحة لكليهما ؛ فإنه سبحانه على كل شيء قدير .

قول الكاتب : (والثالث أن البقرة وأخاها الذئب من عالم العجماوات، وهو عالم معدود من غير العاقل، وهذه الرواية تُخرجهما مما عُرفا به، وخلقهما الله تعالى عليه؛ فتجعلهما عاقلين، متحدثين بما يدفعان به عن أنفسهما؛ فالغرابة منهما مُركبة، والعجب في حالهما متعدد الوجوه؛ إذ تحلى بصفتين، قصرهما الله تعالى على الإنسان، وهما العقل والكلام)

الجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول : أن خوارق العادات من الكرامات والمعجزات تأتي على خلاف الأصل والعادة المطردة ؛ ولهذا نظائر ، منها أن عيسى تكلم في المهد ، والعادة أن الذي في المهد لايستطيع الكلام ، كما قال تعالى : {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا } وثبت في الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم : (لم يتكلَّمْ في المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم ، وصاحب جُرَيج) ، ومنها ولادة عيسى عليه السلام بلا أب ، وعصا موسى عليه السلام ويده ، وولادة امرأة إبراهيم عليه السلام وهي عجوز ، ومنها الإسراء به صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ثم العروج به إلى السماء حتى سمع صريف الأقلام ، وأراه الله عز وجل من آياته الكبرى ، في ليلة واحدة ، ومنها أن حجرا بمكة كان يسلم عليه قبل أن يبعث ، ومنها أنه رآه جمل فجرجر وذرفت عيناه ، فمسحه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسكن ، وشكى إليه أن صاحبه كان يجيعه ويدئبه ، وفي يوم الخندق انكفأ صلى الله عليه وسلم ومعه نحو من ألف إلى بيت جابر إلى برمة فيها جراب من شعير وعناق فأكلوا جميعا منها ، وحضرت الصلاة

يوما فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوا سوى إناء صغير ، فبسط فيه يده وأمر الناس أن يتوضوء وكانوا نحوا من ثمانين ، فجعل الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضؤوا أجمعون ، وانكسرت رجل عبدالله بن عتيك في حادثة قتله لأبي رافع اليهودي ، فقال : ابسط رجلك فمسحها قال عبدالله فكأني لم أشتكها قط ، وكان في عيني علي رضي الله عنه رمد فبصق فيهما فبرأ كأن لم يكن به وجع ، وكان صلى عليه وسلم يخطب على جذع نخله فصنع له منبر ، فاضطربت النخلة وصاحت حتى كادت أن تنشق ، فضمها إليه ، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت ، إلى غيرها من الآيات التي هي خارجة عن العادة .

الوجه الثاني : أنه على طريقة الباحث يلزمه ـ طردا لها ـ أن ينكر الكرامات والمعجزات ، فإن التزم فذاك ضلال مبين ، وخروج عن سبيل أهل السنة والجماعة ، وإن لم يلتزم بطل قوله ، وعاد بالنقض على نفسه .

الوجه الثالث : يقال للكاتب : إن الله الذي خلق هذه العجماوات على صورة معينة ، هو سبحانه الذي أقدرها على الكلام حيث شاء ، فهل ثمة مايمنع من هذا أويحيله ؟ ولعل في حديث أنس رضي الله عنه المخرج في الصحيحين مايكشف عن الكاتب اضطرابه وتخبطه وهو أنَّ رجلا قال : يا رسولَ الله قال الله تعالى : {الذين يُحْشرون على وجوههم إلى جهنم} أيُحشَرُ الكافر على وجهه ؟ قال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– : (أَلَيْسَ الذي أمْشَاه على رجليه في الدنيا قادر على أن يمشيَه على وجهه يوم القيامة) قال قتادة حين بَلَغه : بلَى، وعزَّةِ ربِّنا.

قول الكاتب : (والرابع أن ابن حزم رحمه الله قال في كتابه "الأصول والفروع" ١٣٢ :" ذهب عبدالله بن قائد وجماعة من الصوفية إلى تجويز المشي على الماء، وإحداث الطعام، وخرق الهواء، وما أشبه هذا لقوم صالحين. وذهب جمهور الصالحين إلى إحالة هذا، والمنع منه...؛ لأن الله عز وجل أبان الأنبياء عليهم السلام بالمعجزات الدالة على صدقهم، المفرقة

بين دعوى المدعين وبينهم؛ فلو جاز أن يأتي بهذا الأمر أحد سواهم لما كان فيه دليل على صدقهم) .

جوابه : أن ابن حزم ليس على طريقة أهل السنة في إثبات كرامات الأولياء ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية (النبوات ص٣) : (فقالت طائفة لا تخرق العادة إلا لنبي وكذبوا بما يذكر من خوارق السحرة والكهان وبكرامات الصالحين ، وهذه طريقة أكثر المعتزلة وغيرهم كأبي محمد بن حزم وغيره) مع التنبيه إلى أن أهل السنة يرفضون غلو الصوفية في إثبات الكرامات، ودعوى الولاية ، ومخالفة ماجاءت به الشريعة بما يزعمون أنه من الكرامات .

قول الكاتب : (والخامس أن ابن حجر قال في قول البقرة : واستدل به على أن الدواب لا تستعمل إلا فيما جرت العادة باستعمالها فيه..." فجعل قول البقرة وحياً من الله تعالى ، نقله الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أصحابه حتى يأخذوا منه هذا الحكم الديني، الموحى به إلى حيوان! والقول بمثل هذا يصطدم بقاعدة صارخة صارمة؛ وهي أن الله تعالى لم يُوح للحيوانات، ولم يشأ أن يجعلها مصدرا لمعرفة أحكامه، وبيان أوامره (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر)!. وأحسب من يؤمن بهذا الحديث، ويُصدق بعزوه إلى رسول الإسلام، يلزمه أن يقول: إن الله تعالى يوحي للحيوانات، ويجعلها وسيلة للتشريع للناس، وهكذا فنحن أمام حالة نادرة وغريبة، وهي أن الله تعالى لا يُبلغنا بحكمه عن طريق جبرائيل عليه السلام كما هي العادة المطردة، وإنما عن طريق بقرة، تُجعل واسطة بين الله تعالى وعز–، ورسوله عليه الصلاة والسلام !) .

قلت : لم أظن أن فهم الكاتب يبلغ إلى هذا المستوى !! فالحافظ ابن حجر : لم يزعم أنه يوحى إلى البقرة تشريع من الله ، وليس في كلامه مايشعر به أصلا ، ولم يبلغ عقل الحافظ ابن حجر رحمه الله من الانحطاط إلى أن يقول مافهمه الكاتب بعقله المنطقي !! والقضية أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر القصة وإيمانه بها دل إقراره لذلك على هذا التشريع الذي ذكره ابن حجر رحمه الله ، فهو وحي من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، بدلالة قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (فإني أؤمن بهذا ..) وهذا الإيمان شامل لنطق البقرة وماتضمنه كلامها من معنى .

وأما ماذكره الكاتب في الوجه السادس ففي الأوجه السابقة جواب عنه ، يضاف إليه أن الكاتب ذكر توصيفا للرجل المذكور في الحديث وغيره ، وليس شيء منها مذكورا في الحديث فهو من بنات أفكاره ، وذلك كاف في رده .

وقول الكاتب : (والسابع أن حديث البقرة إذا لم يكن تشريعا للمحيطين بذلك الرجل، في قرية كانوا أم مدينة، فما قيمة قول البقرة حينئذ؟ وما قيمة القول بأن الله تعالى أنطقها، والمؤمنون قديما وحديثا لا يقرّون بشيء كإقرارهم بقدرة الله عز وجل ونفاذ حكمه؟ أليس هذا من العبث الظاهر، الذي يجدر بالعاقل والمسلم أن ينفياه عن الله تعالى ؟)

قلت : العبث الحقيقي أن يخوض الكاتب في النصوص الشرعية ، ويخبط فيها خبط عشواء ، ويسفه علماء الأمة ، بلا علم ولا بصيرة ولا هدى من الله ، ولو كان الكاتب يعقل ماجاء في القرآن العظيم لم يقل هذا القول ؛ ذلك أن الأخبار والمعجزات لايلزم منها تشريع ، بل الأصل فيها عقلها والتفكر فيها ؛ حتى تقوده إلى الإيمان والثبات على الحق .

هذا وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد ، والله أعلم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

كتبه د/ عبدالعزيز بن محمد السعيد

عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٣٤/١١/٨هـ